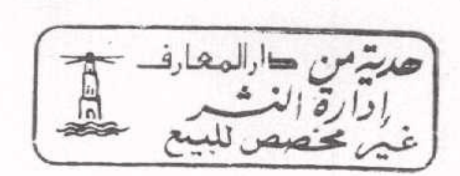





ملكتبتى | ٤٥

# لسانك يا عصفور



تأليف : د. فتحى الصنفاوى
رسوم : منال بدران



دار المعارف

تصميم الغلاف: محمد أبو طالب

تنفيذ الغلاف والمتن
بالمركز الالكترونى
بدار المعارف

الناشر: دار المعارف ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة - ج. م. ع.
هاتف: ٥٧٧٧٠٧٧ - فاكس: ٥٧٤٤٩٩٩ Email: maaref@idsc.net.eg

إعداد الماكيت: أمانى والى

إنه يومٌ مشرق جميلٌ، ياه.. ما أحْلى هَذِه الساعة، وما أحلى الشمسَ وهى تخرجُ منْ مكمنهَا لتُلقىَ بِأشعتهَا الذهبيةِ الصَّباحيةِ الدافئةِ فى كُلِّ اتجاه.

قال «عصفورٌ» لنفسِه هذه الكلمات الحلوة المتفائِلة، وهو يتمَطَّأ مُرفرِفًا بجناحيْهِ الصَّغيرين، نَافِضًا ريشَه كمنْ ينفضُ عن نفسِه غُبارَ الكسَل، ثم قفزَ بخفّةٍ إلى حافةِ عُشه وهو يستديرُ يمينًا ويسارًا ليستطلعَ ما حوله، لعله يجدُ شيئًا ما يلفتُ انتباهَه، ولكن تبدُو الأمورُ طبيعية فى هذا الصباحِ الباكِر، تقافزَ «عصفورٌ» من غُصنٍ إلى غصنٍ وهو يصفِّر ويشقشقُ بمرَح، فى محاولةٍ لتسلية نفسِه حتى تصحُو بقيةُ العصافير، وفى نفس الوقتِ يمارسُ رياضته التنشيطيّة الصباحيّة المعتادة.

ولكن لم يلبثْ أن توقفَ «عصفورٌ» فجأةً، وأخذَ يتطلعُ إلى أعشاشِ جيرانِه من الطيُور، وإلى مكامنِ وجحُورِ المخلوقاتِ الأخرى المجَاورة، لعله يجدُ ما يُسلّيه لعدةِ دقائقَ قبل أن يعودَ إلى عُشه ليوقظَ زوجتَه وصغارَه، وعندما تعذّر عليه العثور على ما يستحقُّ الفرجَة والمشاهدة، وقف على حَافة العش يزقزقُ بقوّة ويصفّر بحِدّةٍ ويصيحُ:

– إيه.. هيّا هيا يا طيور، اصحوا.. أفيقُوا، حان وقتُ القيام.. هذا يومٌ جديدٌ مُشرق، هيّا يا عزيزتى عُصفورة.. هيا يا صغارِى لا تتكاسَلوا.. هيّا.

انتقل «عُصفور» إلى فرعٍ آخرَ، وأخذَ يُكررُ صِياحَه إلى جوارِ أحدِ الأعشَاش، ثم انتقلَ إلى غُصنٍ آخر وهو يزقزقُ ويصفِّر، زاعقًا ومُكررًا نداءاته الصَّاخبة ليوقظَ الجميع.. وعلى الفورِ أطَلَّت الطيورُ من أعشاشهَا ومن الفجواتِ الغائرةِ فى جُذوع الشجر، وأطلّ بعضُهم برأسِه حَانقًا يستطلعُ الأمرَ وينظرُ إليه بِضيق، فقد أضْجَرتهم وأزْعَجتهم تصرُّفات «عُصفور» وحمَاقاته فى الصباحِ الباكر.. أما جيرانه القُدامَى الذين تعوّدوا على سَخَافاته اليوميّة تلك، فقد اكتفُوا بالنظرِ إليه فى غَيْظٍ.

أما جَارته البومةُ التى تسكنُ أحدَ الشقوق الغائرةِ فى جذع شَجَرته، فلم تجد بُدًّا منَ الخروجِ إليه من مَكْمنهَا حَانِقَة، لقد أفزعهَا وأقلق راحتهَا عصفورُ بصياحه المتواصِل، فهى لم تكد تعودُ إلى مسكنها بعد ليلةٍ طويلة من البحثِ الجاد عنِ الغذاء، ولم تكد تنتهى من إطعامِ صِغارهَا، حتى كَمِنت تلتمسُ النومَ والراحةَ قبل سُطوع الشمس، فالبومةُ كما هو معروفٌ لا تعملُ إلا فى ظلامِ الليل، وهى على العكسِ من معظمِ الطيورِ والمخلوقاتِ لا ترى جيدًا فى ضوءِ النهار، لذا صرخت به غاضبةً وهى تقُولُ:

– أنت يا هذَا.. ما هذا الإزعاجُ فى هذه الساعة المبكرة، ألا تعلمُ أن البعضَ مازال يلتمسُ الآن الراحةَ والهدُوء، وهناك مخلوقاتٌ أخرى لم تكد تصلُ لمساكنها كى تنامَ لأنها تعملُ ليلاً وتنامُ نهارًا.. أرجُوك

يا جارنا المحترم مُراعاة مشاعرَ الآخرِينَ، وكفانَا إزعاجًا وضجيجًا أصلحَ الله حَالك..

استمع «عصفورٌ» إلى تلكَ الكلمات الساخنةِ وكأنها لا تَعْنيه، وطارَ إلى شجرةٍ أخرى يبحثُ وَيدققُ، مستمتعًا بهوَايته المفضلةِ فى التلصُّصِ على الآخرينَ والتدخُّلِ فيمَا لا يعنيه، وكَمْ كانت فرحته عندمَا وصل إلى سمعه حوارٌ مُحتد بين جاره "أبو قردان" وزوجَته..!! اقترب مِنْ مكانهم بخفَّةٍ مُتناهية، ثم اقتربَ أكثرَ فأكثر مُتخفيا بين وريْقَاتِ الشجر حتَّى لا يرونه فيقطعُوا حديثَهم، وجلسَ صامتا يسترِقُ السمعَ إلى تَحَاورهم:

يا زوجَتى العزيزة.. إنى متعبٌ جدا بعدَ مجْهودِ الأمس، اتركينى أنامُ قليلاً فمَازالَ الوقتُ مُبكرا، ولكن أرْجُوكِ لا تقلقِى.. بعد قليل سأستجمعُ قوايَ وأذهبُ لجمع الديدانِ لك وللصغارِ، ولكى تطمئنى تمامًا.. أعرفُ حقلاً متسعًا رأيتُ صاحبَه بالأمسِ يستعدُّ لحرثِ أرضِه اليوم، وسأكُونُ خَلفه حين يبدأ عمله، وستكونُ لنا وللصغارِ وليمةٌ طيبةٌ من الديدانِ الطازجةِ إن شاء الله.

– ولكن يا زوجى العزيز.. لقد أشرقت الشمسُ وعَلَت فى السماء، وأخْشى أن تصلَ إلى الحقلِ بتكاسُلكَ هذَا بعد فواتِ الأوان، ويكون صديقنَا الفلاحُ قد انتهى من حرثِ الأرضِ وتقليبهَا، بينما هربت الديدانُ أو جمعتها كلّهَا الطيورُ النشِطة، وأنت مازلتَ قابعًا فى العش كسُولاً على هذا النحو..

– لا تخافِى يا عزيزتى.. فقط دعينى أستريحُ برهةً وبعدهَا أذهبُ على الفور.

– كيف أتركك ونظل جَوْعى.. انظر لقد استيقظت الصغارُ وأفاقتْ من نومهَا، وهى الآن تصَوْصَوْ بعد أنْ أيقظهَا مبكرًا جدا جارنا العصفورُ المزعجُ قاتله الله.. هَيَّا قبل أن تشعرَ بالجوعِ فتصيح وتقلق الجيران، والله إنْ لمْ تقم الآن وتذهبْ لعملك على الفور، سأتركُ لك الصغارَ يصيحُون، فأنا لا أتحملُ رُؤْيتهم على هَذَا الحال، ولتكنْ أنتَ المسئولُ عنهم وعنْ رعَايتهم طوال اليوم.

– إيه إيه.. لا تُهَدديننى يا زوجَتِى فهذا لا يصح.. فأنا الأبُ وأنا المسئولُ الأولُ عنهم وعنكِ أيضا.

– إذنْ هيَّا اذهبْ لواجبكَ فى الحال.. هيَّا.

قام أبو قِرْدان من العش رغمًا عنه، ووقف على حافةِ العش برهةً وهو يتأففُ ضيقًا مُستطلعًا ما حوله، ولكنْ.. ما لبثَ أن عَاد ليلقىَ بجسَده ثانيةً فى رُكْنٍ منه، وعلى الفورِ.. نظرت إليه زوجتُه فى ضيقٍ شديد ثم تركته وطارت مُسرعةً تاركةً المكان، فهبَّ زوجُها خلفهَا يناديهَا دونَ جدوى..

ضَحِكَ« عُصفور » مِلْء منقاره الصغيرِ فى سعادةٍ غامرةٍ مستمتعًا بمــا رآه وبمــا سَمِعه ، وهــا هــو يرى « أبــو قــردان » فى حيرةٍ مــن أمــره لا يدرِى ماذا يفعل، بينما أخذ الصغارُ ينادُون أمهم ويصرخُون

باكين.. وعلى الفـور.. طـار «عُصفور» مُتنقلا بين الأشـجارِ لعله يجد أحدًا يحكى له حكايةَ «أبو قردان» وزوجته، ثم أسرع فرحًا مُستبشرا إلى أحدِ الأفرعِ المُرتفعة، حيث يقفُ جارُه الغرابُ يمسحُ ريشَه ويستمتعُ بشمسِ الصباحِ الرقيقةِ الدافئة، واتجه إليه مُتهللا ليخبرَه بما حدثَ بين أبى قردان وزوجته.. ولكن فُوجئ به يُقاطعه قائلاً:

– يا سيد «عصفور» أرجُوك.. أرجُوك يا أخى، أنا لم أطلبْ منك أن تُسلينى أو تحكى لى عنْ جيرانى، يا عزيزى: هذه أمورٌ عائليةٌ لا أحبُّ أن أسمعَهَا، هيا اذهب إلى حَال سَبيلكَ وقل بدلاً من كلامكَ السخيفِ هذَا.. يا فتَّاحْ يا عَليم أصبحنَا وأصبحَ الملكُ لله، اذهب عنى يا جَارِى سامحَك الله.. هيَّا هيَّا.

استـاء «عـصفـورٌ» جدا من هـذه الـروح الـعـدائـيـةِ الـتـى قـابـلَـهُ بـهـا الغرابُ، ومن الحرجِ والأسلوبِ والطريقةِ التى تحدثَ بها إليه، ولكن ورغْمَ كل ذلك.. ما هى إلا لحظات حتى غلبه طبعُه السيئ، فانتقل سريعًا إلى حيثُ يقفُ صديقُه «أبو فصادة».. وبادر بتحيته ثم أخذ يستفسرُ منه عن أخبارِه، ثم سأله عن حَالِ جاره «أبو قردان».. فأخبره بأنه لم يَرَهُ من فترةٍ لأنه مشْغُولٌ ببناءِ عُش جديدٍ، وهنَا.. لمعَت عينَا «عصفورٍ» وتهللتْ أسَاريرُه، ووجدها فرصَةً سانحَةً كى يخبرَه عَمَّا حدثَ بين «أبو قردان» وزوجته.. فنظر إليه صاحبُه برهَةً بفُتُورٍ.. ثم قال له مُعاتبا:



– ياسيد «عصفور» يا صَديقى.. لقد أخبرتك عدة مرات ناصحًا لك بأمَانـة، إن هـذه أمـورٌ لا تعنينى قـط ولا أحب أنْ أعرفَهَـا، أرجُـوك لا تحاولُ ثانيـةً أن تحكىَ لى أو تسألنى عَنْ أحدٍ، أستأذنُكَ الآن للانصرافِ فأنا مشغولٌ فيمَا هو أهم.

وهكذا انصرفَ عنه صديقه وتركَه وحيدًا، فالكلُّ منشغلٌ فى عَمله أو ما يخصُّه، بينما هو واقفٌ ينظرُ حوله فى بَلَه لعله يجدُ ما يشغله، وفجأةً.. تذكر أنه سمعَ صغارَه يصرخُون من الجُوع فلم يتناولُوا طعامهُم بعد، ياللعيب.. فربما تضطرُّ زوجته للذهابِ وحدهَا للبحثِ عن شىء يقتاتُون به، ولعلهَا اضطرت فى غيابه مُغادرة العش، وتركِ الصغار وحدهم بلاَ رعايةٍ فيصيبهم مَكروه، وها هو يحدثُ نفسَه ويلومُهَا قائلاً:

– أنا آسف جدا.. لقد انشغلتُ عنكم يا صغارِى بأمورٍ تافهة حقا، ونسيتُ أن أذهبَ للبحثِ عن غذاءٍ مناسبٍ لكم، «أوه» كم أنا مخطئ.. لابد لى منَ العودةِ سريعًا للاطمئنانِ عليهم، ثم أذهبُ على الفورِ لإحضارِ الطعَام.

طار «عُصفور» عائدًا إلى عُشه مسرعًا، وهناك.. وجد زوجَته واقفةً فى انتظارِه على حافةِ العش، وقد استبد بها القلقُ الشديدُ فأخذت تكيلُ له جَمَّ غضبهَا، فقد تركهَا وصغارهَا واختفى وهى لا تدرِى أين ذهبَ وماذَا يفعلُ بالضبط..؟ إيه.. ربما ذهبَ يحضرُ لهم طعامَ



الإفطار.. وربمَا نسيهم تمامًا وأخذَ يتجولُ هنا وهناك، وربما ذهبَ يبحثُ عمن يتحدثُ إليه ويلوكُ بلسانِه أخبارَ الآخرِينَ، ولكن ها هو يحضرُ إليهم خَالى الفم.. ولا يحملُ بمنقَارِهِ شيئا لصغارِه الذينَ علاَ صُرَاخهم من الجوعِ والعطش، وهرعَت إليه فاغرةً مناقيرهَا تنتظرُ إطعامهَا دونَ جدوى.. أما زوجته فلم تجدْ بُدًّا من توبيخِه قائلةً:

– لقد بلغ استهتاركَ بنا حَدًّا لايمكنُ السكوتُ عليه، وأصبحتَ لا تدركُ معنى كَونك أبًا لعصافيرَ صِغَار، لهم عليكَ حق واجبٌ وحق الرعَاية والتفانِى فى خدمتهم، وبدلاً من ذلك تركتهم جَوْعَى ينتظرُون مَنْ يُطعمهم.. اذهبْ على الفورِ وعُد بالطعامِ فى أسرعِ وقتٍ مُمكن، هيّا هيّا.. لا تتأخر.

غادر «عصفورُ» العُشَّ وقد ملأه الخجلُ من كلماتِ زوجته التى انطلقتْ من فَمها كطلقاتِ الرصَاص، وأسرع تجاهَ الحقولِ القريبةِ لعله يجدُ ما يصلحُ كطعامٍ لإفطارِ صِغَاره.. وبمجردِ انطلاقه من عُشه سمعَ جَارته اليمامةَ تصيحُ صارخةً مُوَلْوِلةً:

– أدرِكونى، أدركُونى.. لقد غافلنِى أحدُهم واختطفَ صَغيرى، ياويلتاه.. النَّجْدة، النجدة يا أولادَ الحلال، أدرِكونى..

على الفورِ وجد «عصفورُ» نفسَه مُتجها إليها مُسْرعا ليستطلعَ الأمر، وقبل أن يقتربَ منها.. شاهدَ جَارَهم الصقرَ يهرعُ مبتعدًا

عن المكان، فى حينَ أســرع البعضُ للبحثِ عن الصغيرِ أسـفلَ الشجرةِ أو حولها، لعله يكونُ قد سقطَ عَلى الأرض، بينما طار أحدُ النسورِ على ارتفاعٍ كبيرٍ ليستطلعَ المنطقةَ كلَّهَا بنظرِهِ الثَّاقب، وعَاد يخبرهُم أنه لا أحدَ غيرهم فى الجوارِ، ولكنَّ « عصفور ».. « عصفور » فقط، انبَرى من بينهم يقسمُ لهم بأنه رَأَى جارَهم الصَّقْرَ يغادرُ المكانَ مسرعًا وهو يحملُ شيئًا ما بينَ مَخَالبه، ثم أشارَ إليهم بضرورة الإسراعِ بالقبضِ عليه مُتلبسا قبل أن يفترسَ الصغير، بل أسرعَ أمامهم طائرًا يقُودهم إلى حيثُ رآه متجهًا، ولكن.. كانت المفاجأةُ التى لم تخطرْ له على بال، فقد رأى الجميعُ الصقرَ يقابلُهــم عائدًا وهو يحملُ اليمامَ الصغيرَ بين قدميهِ فى حنانٍ ويصيحُ قائلاً:

– أبشِرُوا أبشروا . . لقد أنقذتُ الصغيرَ من بين يدى الحِدَأة، وها هو بخيرٍ..

أشرق وجْهُ اليمامةِ وهى تحتضنُ صغيرهَا والدمُوع تنسكبُ منْ عينيها كالسيْل.. هَلَّلت الطيورُ صائحةً ومُزقزقة ومغردَةً وهى تصفقُ بأجنحتهَا إعجابًا وإشادةً بجَارهم الصقر الشجَاع، أما « عصفور ».. فأطرقَ رأسَه خجلاً فى حين قالت اليمامةُ بصوتٍ مَلىء بالعرفانِ:

– لقـد كدنـا نظلمـكَ يا عزِيزى وجَـارى الصقـر.. لقد ادعـى هذا الـ « عصفور » بأنكَ اختطفتَ صغيرى الوحيد، ويحقُّ لك إذا شئتَ أن تشكُوه وتتهمه بالإدعاء الكَاذِب، ونحنُ جميعًا نشهدُ على ذلك.. وعلى كلّ أرجوكَ أن تقبلَ أسفنا واعتذارنَا، وأنا أشكرك منْ صميمِ قلبِى ولنْ أنسى لكَ هذَا الجميلَ ما حييت..

وفى هذه اللَّحْظةِ بالذات، وصل النسرُ رئيسُ طيورِ المنْطقة، واستمعَ – صامتًا – إلى الحديثِ الذِى دار بينَ الطيور التى تَجَمْهرت حولَ شجرةِ وعُش اليمامة، وأصر النسرُ على القبضِ على عُصفور.. واصطحَابه إلى مقر النسرِ الكبيرِ ملكِ الطيورِ، ليعاقبَه على حَمَاقته وسُوءِ تصرُّفه، واتهامَاته الباطِلة التى كادت تُوقع بالصقرِ ظلمًا.. ولكن اليمامةَ أخذت ترجُوه بشدةٍ أن يعفوَ عن « عصفورٍ » هذه المرة، ويتركَه من أجلِ صغاره الجَوْعى، وإذا تكررَ منه ما يشينُ فعليه أن يفعلَ به ما يرَاه.

اتجه النسرُ إلى « عصفور » يُوَبخُه ويُؤَنبه، ويحَذِّره منْ أن ثَرثرته قد تسببُ له مشاكلَ عديدةٍ لا يحتملهَا.. بينما أطرقَ « عصفورُ » برأسِه نحو الأرضِ خجلاً وهو يستمعُ إلى كلماتِ وتهديداتِ النسرِ القاسِيَة، فى حينَ توجَّه النسرُ نحو الصقر يُلقى إليه بالتحيةِ ويشكرُ له شهامتَهُ وجَسَارته ونَجْدته لجِيرانه، وما هى إلا لحظاتٌ حتَّى غادرَ



«عصفورُ» المكانَ مسرعًا بعد أنْ تذكرَ - مُتأخرا - أنه كانَ فى طريقهِ للبحثِ عن طعامٍ لصغارِه لنفسِه وزوجَته..

حاولَ «عصفورُ» جاهدًا الامتثالَ لرغباتِ جيرانه بعدمِ إزعاجِهم، خاصَّة بعد أن نصَحُوه بالحُسنى ألا يتعمدَ التلصُّص عليهم، أو تسمُّع أخبارهم والتدخل فى خُصُوصياتهم وأسرَارِهم الشَّخْصية، ولكن.. لم تمر عدةُ أيامٍ فقط، حتى - عَادت ريمةُ لعادتها القدِيمة كما يقولُ البشرُ - وعَاد هو أيضا لعادَاته وتصرُّفاته السيئةِ من جديدٍ وكأن شيئًا لم يكُنْ، فلم تؤثر فيه كلماتُ زوجَته وجِيرَانه، ويبدُو أنه لم يستوعبْ نصائحَ وتهديدات النسر جيدا، لذلك.. لم تجدْ السيدةُ البومةُ ولا اليمامةُ وبقيةُ الجيران، بُدًّا من التوجُّهِ إلى الشجرةِ الملكيَّة، وطلبُوا الإذنَ لمقابلةِ النسر الكبير لعرضِ الأمر عليه ليرَى فيه مَا يرى.

عَلى الفور.. أمر الملكُ باستدعاءِ «عصفور»، ولما أحضره الحراسُ إلى حضرتِهِ مقبوضًا عليه، أطلعه كبيرُ الحرسِ على الشكاوى العديدةِ التى تقدَّمَ بها جيرانُه ضده، وتضرُّرهم ممَّا بَدَرَ منه تجَاههم، ومن تَجَاهله لأبسطِ الحقوقِ والواجباتِ التى لابدَّ من أن يلتزمَ بها كلُّ فردٍ تجَاه جِيرانه، احترامًا لمشاعرِ الآخرينَ وحفاظًا على العلاقاتِ الطيبة والودِّ والتعاونِ المتبادلِ بينَ المواطنين.

أمام الملك.. وقف «عصفورُ» يرتجفُ وينتفضُ خوفًا وهلعًا، وهو يحـاولُ الدفـاعَ عن نفسِه والتملُّصِ منْ ذنبـه، إمـا نافيا لجُرْمِه بكلِّ مَا أُوتى من حُجَجٍ وفصَاحةٍ، أو مبررًا لتصرُّفاته السيئةِ وموقفه المشِين، أو مُؤكدا أنه لم يفعلْ ذلك إلا بنية حسَنةٍ من بابِ التسليةِ فقط، ويقسمُ بأنه لم يكنْ يضمرُ شرًّا لأحدٍ، ولم يتعمدْ أبدًا إيذاء جيرَانه الأعزَّاء، ولكن الملكَ قاطعه بحزمٍ وبحدةٍ قائلا:

– استمع لى جيدا يا هذَا.. والله إنْ لم تكف فورًا عن حمَاقاتك تلكَ نِهَائيا، وتمتنعْ تمامًا عن مُحاولة إيذاء جيرَانك أو إلحَاق الضررِ بهم، والتدخلِ فى شُئُونهم والتلصُّصِ عليهم، لسوف آمرُ بقتلكَ أو قطعِ لسَانك الذى يسببُ لك ولنا المتاعبَ عقابًا لك، وأنْ أجعلكَ عبرةً رَادعةً لأمثالكَ من النمامِينَ وأهلِ الفتنة.. هذا إنذارٌ أخيرٌ لك أيهَا العصفورُ اللئيمُ.. هَيَّا.. هيا اغربْ عن وجْهِى أخزاكَ الله.

عاد «عصفورُ» إلى عُشه وهو يرتعدُ مما سمعَه من المَلك، واستقبلتهُ زوجتُه بالمزيدِ من التأنيبِ والتوبيخِ وهو يستمعُ إلى كلماتهَا صامتًا، ثم طلبتْ منه أن يقسمَ لها ثلاثًا ألاَّ يعودَ لتلكَ الهوايةِ الذميمةِ أبدًا، وظل عُصفور قابعًا فى العش صامتًا مهمومًا لعدةِ أيام لا يُغَادرُه إلاَّ للضرورةِ حتى لا يغلبه طبعُه، وهربًا من نظراتِ الاستهزاء التِى يراهَا فى عُيُونِ الآخرين، والكلماتِ والهمسَاتِ الجارحَة التى يسمعهَا أحيانًا تتردد على ألسنتهم.

مضت عدةُ أسابيع أخرى حَاول فيها «عصفورُ» قهرَ نفسِه الأمَّارَة بالسوء، إلا أنه بدأ يعودُ ثانيةً لمضايقةِ جيرانه مِنْ جديد، ظَنًّا منه أنَّ الجميعَ قد نَسُوا حِكَايته معهم، كما نَسُوا أو تناسُوا ما كان بينه وبينَ الملك، وفى النهايةِ.. لم تجد اليمامةُ والبومةُ مفرًّا من تهديدِه بعودةِ الشَّكوى للمَلك، ليلقى ما لا تحمدُ عُقباه..

ذاتَ صباحٍ.. طارَ «عُصفور» تاركًا عُشه بعد أن أطعمَ صغَاره، واتجه إلى مكانٍ هادئٍ بعيد، وما أنْ وجدَ شجرةً كبيرةً باسقةَ الأفرعِ والأغصَان، حتى جلسَ على إحداهَا ساكنًا صامتًا يفكرُ بعُمْق، ويستعرضُ الأحداثَ التى مرَّت به فى الأيامِ الأخيرة، وخطرتْ على باله عدةُ أسئلةٍ هامة منها:

أولا: لماذا يُعَاملنى جِيرانى بهذَا الجفاءِ الزائد، ولماذا يتحاملُون علىَّ هكذا، والله أنا لم أقصدْ إيذاءَ أحدٍ منهم..؟.

ثانيا: هل أنا سيئ الخُلُق وسَقيمُ الطبعِ إلى هذَا الحد.. !!ولكنى أقسمُ بالله أننى لا أتعمدُ هذهِ التصرفات، ولكن هذه هى طَبيعتى التى وُجدت عليها، ويبدُو أنه لم يوجِّهنى أحدٌ فى صغرِى أو يعلمنِى أصولَ التعاملِ معَ الغير.. نعم نعم.. يبدُو ذلك، إذنْ أنا مظلومٌ ولا ذنبَ لى فى تصرفاتِى التلقائيَّة تلك..!!

ثالثا: ولكن ماذا لو أصرَّ جيرانِى على تقديمِ شكوى جَديدة للملكِ..؟

ياه.. يا لها من مُصيبة.. ما العملُ الآن يا عُصفور؟!

دارت هذه الهواجسُ والمخاوفُ فى نفسِ « عصفور »، وبدلاً من أنْ يصلحَ الأمرَ بينَه وبينَ جيرانه، هداهُ تفكيرهُ السَّيئُ إلى تدبيرِ حيلةٍ أو مكيدةٍ يتخلصُ فيها من البومةِ واليمامةِ معًا نهائيا.. وهكذا يُبعدهم عنه وعنْ جيرتهِ وشجَرته نِهَائيا، وفى نفسِ الوقتِ ينتقمُ منهنَّ شرَّ انتقامٍ.. سَرَّته جدا هذه الفكرةُ الخبيثةُ، وبالفعلِ قرر تنفيذَهَا عَلى الفور..

فى صباحِ اليومِ التالى . . انصَرفت الطيورُ والحيواناتُ إلى شُئونها، فى حين اختبأَ « عُصفور » فى شجرةٍ كثيفةٍ قريبةٍ، يرقبُ منها فى صمتٍ جَارته اليمامةَ حتى شاهدهَا تبتعدُ عنْ عشها وصغيرهَا لبرْهةٍ.. وفى الحَال.. انطلقَ « عصفورُ » نحو عُش اليمامةِ ، وحمل صغيرهَا المسكينَ بين مَخَالبِ أرجُله، واتجه به مسرعًا إلى الفجوةِ التى أعدتها البومةُ لسكناهَا، ثم ألقاه بهَا وعاد بسُرعة لمخبئهِ ليقبعَ فيه سَاكنًا، بعد أنْ تأكدَ أنَّ أحدًا لمْ يرهُ، ومَا هى إلا دقائق مَعْدودة حتَّى عادت اليمامةُ إلى عشها، لتفاجأَ بأنَّ صغيرهَا قد اختفى..

أخذتِ الأم المسكينةُ تصرخُ مُولولةً تطلبُ النجدةَ ومساعدةَ جيرانهَا، وأخذت تبحثُ عنه أسفلَ الشجرةِ وما حولهَا بِلاَ فائدة، وما هى إلا لحظاتٌ حتى أسرعَ إليها البعضُ يساعدهَا فى البحثِ عنه دُونَ جدوى، بينما أخذَ البعضُ يلومهَا على تركهَا الصغارَ دونَ رعَاية،

ولكنها أقسمَت لهم بأنها لم تتركْهُم وتُبَارح العش سِوَى لحظاتٍ قليلة، وهنا.. تسللَ « عصفورُ » ليقفَ بينهم، ثم انبرَى يُبدى رَأْيَه قائلاً باهتمامٍ شَدِيد:

– يا إخوانى الأعزاء.. اليمامُ الصغيرُ لم يسقطْ من العش كما تظنون، ولكنى أخشَى أن أخبرَكُم بما رأيتُ بعينى فلا تصدِّقونى.. وقد تتهمُونِى بالكذِب.

رد عليه الجميعُ فى ضيقٍ وضجرٍ شديدين:

– هيا يا « عصفور » قُل ماذا رأيتَ بالضبط..؟ ولكن.. احذر من الكذبِ والتلفيقِ أو الادعاءَ ات الباطلة.. هيَّا انطقْ قُلْ..

أقسِمُ لكم بأنى رأيتُ البومةَ التى تسكنُ هذا الوكْر، وهى تختطفُ صغيرَ اليمامِ من عشه أثناءَ غيابِ أمه وتدخلُ به إلى عُمْقِ الوكْرِ، ثم تخرجُ منه مسرعةً تنظرُ حولها يمينًا ويسارًا بحَذر، كأنما تتأكدُ أن أحدًا لم يرهَا.. هذا ما رأيته وأنا قابعٌ فى عُشى ، والآَن أَرويه لكم يا أصدقائى بكلِّ أمانةٍ وصدْقٍ، ولكى أثبتُ لكم صدقَ حَديثى. . هيَّا بنا.. هيا بنا إلى هناكَ لترَوْنَهُ بأنفسِكُم قبل أن تلتهمَه.. هيَّا هيَّا.

فى الحالِ اتجه الجميعُ يقودُهم عُصفور وخلفَه الأمُّ البَاكية، وما أنْ حَطُّوا بجوارِ وكرِ البومةِ، حتى فُوجئوا بصغيرِ اليمامِ يقفُ على حَافته فزعًا لا حول له ولا قُوة، فأسرَعَت اليمامةُ تحتضِنُه بجناحيهَا وتهدِّئ

من رَوْعه، وأخذت تتفحّصه جيدًا لعلّهُ يكونُ جريحًا أو به أيّ أذى، ثم أخذت تَسْأله:

– مَنْ أتى بك إلى هنَا يا حبيبى.. وكيف وصلْتَ إلى هذا المكانِ وأنت مازلتَ صغيرًا لا تستطيعُ الطيرانَ بعد..؟ الحمدُ لله أننا وصلنَا إليكَ فى الوقتِ المناسبِ.

انتظر الجميعُ لحظةً لعلَّ الصغيرَ يُجيبهم عن تسَاؤلاَتهم الحائرَة، ولكنه نظرَ إليهم فى براءةٍ ولم يتفوَّه بكلمةٍ، فهو لم يزلْ بعد صغيرًا جدا، ولم تجد اليمامةُ بدًّا من توجِيه الشُّكرِ لـ. « عصفور » رغمًا عنها، ولكنها أصرَّت على أن تَشْكُوَ جَارتها البومةَ للملِكِ، استنادًا لشهادةِ جارهَا عصفور، فهى أصبحَت تعتقدُ الآن – يقينًا – بأنَّ البومةَ قد أصبحت خطرًا داهمًا عليهَا وعلى صغارهَا، ولكن عصفور تجرأَ وصاحَ بهم:

– فعلاً.. فعلاً، لابد من مُحَاكمة البومة وطردها فلا مكانَ لها هُنَا بيننا، ولابدَّ أيضا من مُعاقبةِ اليمامة لإهمالهَا المتكرر رِعَاية صغارها.

فى هذه اللحظة أسرع أحدُهم يؤيد « عصفورَ » قائلاً:

– لك الحقُّ كل الحقِّ يا سيد عصفور.. ولنذهبْ فى الحالِ إلى مقر الملكِ نشكُو له ما فَعَلته تلك البومةُ اللئيمةُ، ونشكُو اليمامةَ على إهمالهَا أطفالهَا.. هيَّا.. هيَّا.

توجَّه الجميعُ إلى مَقر الملك ليطلُبُوا اعتقالَ البومةِ واليمامةِ ومُحَاكمتهن، وبعد أن استمعَ الملكُ إلى شكواهم باهتمامٍ سألَ.. هل من شُهودٍ..؟ تقدم عصفورٌ وهو يرتجفُ خوفًا من أنْ ينكشفَ كَذِبه، فأشارَ إليه الملكُ بحلفِ اليمين.. ثم قَالَ له:

– أنت «العصفورُ» الذى اتهمتك البومةُ بإزعاجِهَا، واليمامةُ بالكذبِ وعدمِ احترامِ جيرانكَ.. أليس كذلك؟ هيا تكلم.. قُلْ ما عندك.. !!ردَّ «عُصفور» بصوتٍ مُرتعش:

– نـ نـ نعم يا مو مو.. لاى.. (قال له الملكُ بحدةٍ وبصوتٍ غاضب):

– حدثنى مَاذا رأيتَ بالضبط.. واحذر الكذبَ أو الافتراءَ على إخوانكَ ظلمًا.. تكلَّم.

صمَت «عُصفور» برهةً كأنمَا يحاولُ أن يتماسكَ لتبدُو فى صوتِه نبرةُ صدق فيقتنع الملكُ بصحَّةِ أقواله، ولكن.. ظل يرتعدُ وتصطكُّ أرجُله ويكادُ يسقطُ من الخوف:

– لقد شَاهدت البومةَ وهى تغافلُ اليمامةَ وتختطفُ صغيرهَا إلى وكرهَا، فلحقتُ بها صارخًا ولكنها ألقتْ به على بابه وهَربت إلى الداخِل، ولعل الجميعَ هنا قد شاهدُوه هناكَ بأنفُسِهم، ولسوءِ حظى لم يشاهدْ أحدٌ سِوَاىَ هذِه الواقعة.. (رد الملك) :

– قلْ لِى بالضبط.. متى حدثَ ذلك بدقة..؟ هل وقعتْ هذه الحادثةُ قبلَ شروقِ الشمسِ أم بعدَ سُطوعها..؟ تذكر جيدا :

– تعلَم يا مولاى أنَّ معظمَ الطيورِ تتركُ أعشاشهَا لتبحث عن رزقهَا مع أولِ ضوءٍ وقبل سُطوع الشمس، ولكن عندما عُدت بالطعامِ لصغَارى، كانت الشمسُ قد سَطعت وعم نورُها سطحَ الأرض و..

هنا قاطعه الملكُ وقد تهلَّلَ وجهُه ثم نظرَ إلى عصفورٍ وقال بحدَّةٍ:

– إذن فعلَت البومةُ فِعْلتها هذه والشمس فى كبدِ السماء كما تقولُ.

– تمامًا يا مولاى.. هو كذلك حَفِظَكَ الله. صاح الملكُ على الفور غاضِبًا مُحتدا:

– أنــــتَ كَاذب . . أَفَّاقٌ كَاذِب ، مــــاذا فعلَت لك البومــــةُ حتى تتهمهَا – ظلمًا– بجريمةٍ لَمْ ترتكبْهَا أخزاك الله؟ لقد حَذَّرتك منذُ فترةٍ وأنذرتكَ بأشدِّ العقابِ إن كذبتَ أو تدخلتَ فيمَا لا يعنيك أيهَا اللَّئِيمُ.

حاول « عصفورٌ » الكلامَ والدفاعَ عن نفسِه لكن الملكَ استطرد غاضبًا :

– اخرس.. لا تتفوَّه بكلمةٍ واحدةٍ، لقد أظهرَ المولى سبحَانه وتعَالى الحقَّ، وأخزاكَ وكشفَ تدبيرَك.. ألا تعلمُ يا غبى أن البومةَ لا تخرجُ من وكرهَا إلا فى الليلِ فقط، وأنها لا ترى بوضُوح فى ضوءِ الشمس..!! كيف إذن خرجَت صباحًا واتجهتْ إلى عُش اليمامةِ ثم التقطت الصغيرَ وهى كالعمياء لا ترى.. كيفَ كيفَ..؟ وكيف وصلَ الصغيرُ

إلى وكرهَا.. هيه؟، لابد أنك حملته بنفسِكَ حتى وكرهَا، والمجرمُ الحقيقى هو أنت، وأنت فقط الذِى فعلتها بنفسِكَ يا كَاذِب، لقد رأيتَ أن تلصقَ التهمةَ بتلك المسْكينة البريئة، وتُلقى إليها بتهمَةٍ باطِلَةٍ.. إذنْ لا مفرَّ من الأمرِ بقتلك على الفور.

انتفض «عصفورٌ» رعبًا، وأخذَ يبكى وهو يستعطفُ الملكَ قائلا:

– الرحمةَ الرحمةَ يا مولاى.. لقد اختلطَ علىَّ الأمرُ والنظرُ بلا شك، وكنتُ ساعتها مُتعجلاً فظننتُ أنى رأيتُ أختنا البومةَ تمرُّ من أمامِى إلى وكرهَا مُسرعةً، والله أنا لا أقصدُ بالضبطِ الإسَاءة إليها، ولكنه الخوف على الصغيرِ لا أكثر، لذا تكهنتُ أنه ربما يكونُ عندها، وللأسفِ كان تكهنى بالصُّدفةِ صحيحًا.. و ..

وهنا وفى تلك اللحظةِ.. طلبَ الهدهدُ من الملكِ أنْ يأذنَ له بسماعِ شهَادته وقال :

– يا مولاى.. أقسمُ لك أنْ أقولَ الحقَّ ولا شىء غيرَ الحق. هذا الصباحُ أحسستُ بوعْكةٍ ظللتُ بسببهَا فى عُشى قابعًا أنظرُ فيما حولى وأسبحُ الله فى هُدوء، ولكنى فوجئتُ بـ «عصفور» يتسللُ بخفةٍ إلى عُش اليمامة، وفى سُرعة خاطفةٍ أخذَ الصغيرَ بينَ أرجله وطارَ به ليُلقيه فى وكرِ البومةِ ثم عَادَ سريعًا، وهأنذا أسردُ عليكَ الواقعةَ يا مولاى كما حدثت دُونَ زيادةٍ أو نُقصان. رد الملكُ وهو فى شدةِ الغضبِ :

- سبحانَ مُظهِرُ الحقَّ.. ما رأيكَ أيهَا الظالمُ.. بماذا تدافعُ عن نفسِكَ الآن.. لا مَفرَّ الآن منْ عقابكَ بشدةٍ.

- الرحمةَ.. الرحمةَ يا مولاى، لى زوجةٌ وعصافيرُ صِغَارٌ أعُولها، وقد خفتُ أن تشكُونى البومةُ واليمامةُ، فأردتُ أن أبعدهما فقط عن طريقِى ولكن بحسْنِ نيَّة، أنا أخطأتُ وأعترفُ بذنبِى تائبًا فاعفُ عنى أصْلحَك الله تعالى..

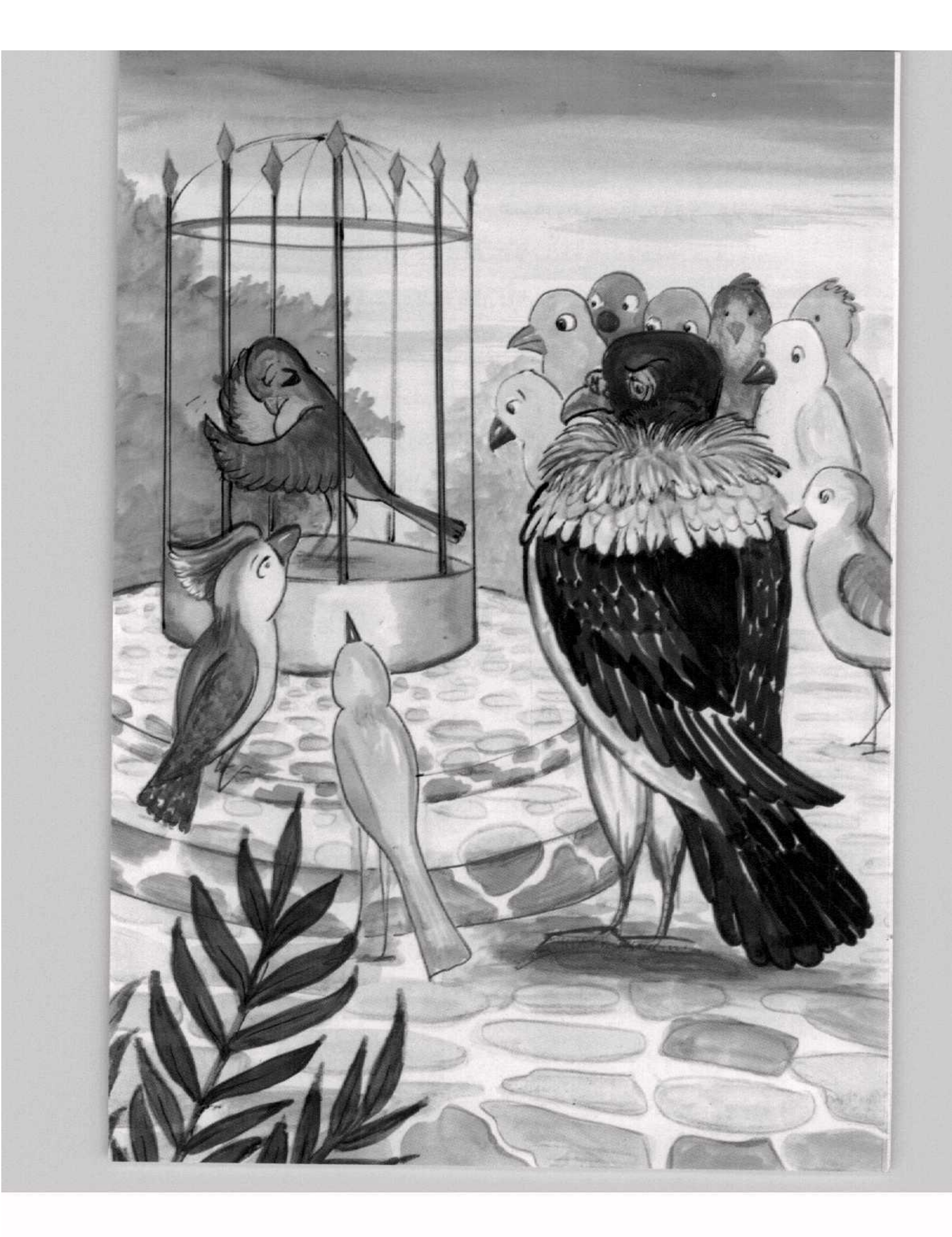
- لقد أنذرتك ونصحْتك من قبل.. والآن لابد من عِقَابك جَزاء لفعلتك الدنيئَة، يا حُراس.. خُذوة على الفورِ إلى السجنِ حتى موعِدَ إعدامه الذى سأحدده فيمَا بعد.

ولكن.. أطرقَ الملكُ برأسِه قليلا، ثم عَاد يقولُ بحزمٍ.. :

- لا لا انتظروا.. لنْ نَقتله ولكن سنقطعُ لسَانه نذيرًا لغيره.. هيا اسجنُوه تحتَ حراسةٍ مشددةٍ فى قفصٍ قَوِى، ثم علّقُوا القفصَ بالشجرةِ بجوارِ عُشه.

- أتوسلُ إليك يا مولاى.. الرحمةَ، لا تقطعَ لسَانى وسأظل صامتًا لا أنطقُ أبدًا.

- حَسَنًا.. حكَمْنا باعتقَالِه فى قفصٍ لا يبارحُه أبدًا، وعليه ألا ينطقَ بحرفٍ أو يتحدثَ مع أحدٍ وبخاصَّة زوجته وصغَاره ، ولا يصدرُ منه صوتٌ مهما كانتِ الظروف، وإذا خالفَ هذه التعليمات اقتلُوه على الفورِ.. هيَّا.. نفذُوا هذا الأمرَ فى الحَالِ.



جَرَّ الحراسُ «عُصفورَ» بعنفٍ.. وما هى إلا ساعةٌ حتى كانَ محبوسًا فى قفص عَلَّقوه بالقربِ منْ عشه، وإلى جِوَاره وقفَ حارسانِ يرقبانهِ ليلاً ونهارًا، وهو صامتٌ لا ينطقُ أو يتفوَّه بحرفٍ واحدٍ، وهو ما شكَّلَ بالنسبةِ إليهِ عذابًا أقسَى من القتلِ، حتى ضَاقت به أنفاسُه، ولكنه لا يستطيعُ أنْ يشكُوَ أو يَتألم، والجميعُ يمرُّون بجوَارِه صَامتين ينظرونَ إليْهِ فى أَسَى، وهو كَسِيرُ النفسِ خجلاً مما جره على نفسِه، وزادَ من عذابِه أن أصبحَت زوجتُه المسكينةُ تتكفلُ وحدهَا برعايةِ الصغار، وهو بِجِوَارهم ولكن لا يستطيعُ أَنْ يفعلَ لهم شيئًا..!!

مرَّت عدةُ أيامٍ وهو حَبيس القفصِ، يتناوبُ الحراسُ مُرَاقبته وتقديم القليل من الغذاءِ إليه صباحًا ومسَاءً دونَ أن يوجه أحدٌ إليه حديثًا، وهو ما أثقلَ عليه عَذابَه وآلامَه النفسية، وتيقنَ أنَّ الملكَ أرادَ أن يعطىَ له وللآخرينَ درسًا قاسِيًا، وبينما هو على تلكَ الحال.. شاهدَ أصغرَ عَصَافيره واقفًا على حَافة العش، يرفرفُ بجناحيه الصَّغيرين الضعيفينِ كأنما يُحاول الطيرانَ مثلَ الكبارِ، ولكنه بالطبعِ مازالَ صغيرًا ولم ينبتْ ريشُه بعد.

- انخلع قلبُ «عصفور» هلعًا على صغيرِه وهو يراهُ قد أوشكَ على السقوطِ منَ العش فَتُدق عُنقه، بينما أَبوُه بجِوَاره ولكنه أسيرٌ عاجزٌ لا يملكُ له شيئا.. هَمَّ عُصفور أنْ يصيحَ به ليبتعدَ ويأوِى إلى داخِل

العش، أو ينادِى على أحدِهم ليمنعه، ولكنْ.. تذكر أمرَ الملكِ عندمَا شاهدَ الحراسَ يتقدمُونَ بأسْلحتهم نحوه، ووجدَ المسكينُ نفسَه ينتحِبُ فى صمتٍ، وفجأةً.. وبكلِّ جرأةٍ صَاح فى الحرَّاس:

– أرجوكُم أيهَا السَّادة.. أتوسلُ إليكُم وأستحلفكُم بالله أنْ تأخذُونى إلى الملكِ الآن، أو انقلوا إليه أنى أطلبُ مقابلته..أرجُوكم أرجوكم.. يا مولاى.. يا مولاى..

ظل «عُصفور» يصيحُ فى هياجٍ اهتزت له جنباتُ المكان.. وطار أحدُ الحراس إلى مَقرِّ الملكِ ليخبرَه بمَا حَدث.. وما هى إلا عدةُ دقائق حتى حضرَ الملكُ بنفْسِهِ.. وأشَارَ كبيرُ الحراسِ بالصمتِ إلى الطيورِ والحيواناتِ التى تَجَمْهرت حولَ المكانِ.. وقال الملكُ مُوَجِّهًا حديثَه إلى «عصفور».

– إيه.. ما هذا الصياح وهذه الضَّجَّةُ التى تُثيرها أيها العصفورُ التَّعِس؟ ألا تخجَل منْ نفسِك، ماذا تُرِيد..؟ هيَّا انطقْ لقد سمحتُ لك بالحَديث..

ردَّ عصفورٌ وهو ينتحبُ باكيًا متوسِّلاً :

– أرجُوك يا مولاى.. أتوسلُ إليك وأستحلفكَ بكلِّ عزيزٍ لديك أنْ تأمرَ بقتلى فى الحَال، فأنا لم أعدْ أقوى عَلى هذَا العذاب.. لقد شاهدتُ ولدى يقتربُ من الموتِ أمامى ولم أستطعْ أنْ أفعلَ له شيئًا، هذا

والله عقابٌ أشدُّ من القتلِ أو قطْعِ اللســـان . . ارحمنى يا مولاى واقتلنى جــزاءً لما اقترفتُ من شــرورٍ ، فقتلى أهــونُ كثيرًا مما أُلاقيــهِ الآن..

ظلَّ « عصفورُ » يبكى والملك يفكرُ فى الأمرِ جيدا ثم قال..:

– الآن.. والآن فقط، نلتَ كفايتك وأخذتَ درسًا أرجُو ألا تنسَاه أو ينْسَاه غيرُك.

– افعلْ بى ما تشَاء يا مولاى.. ولكن لا تتركنى مُجْبرا على الصمتِ ولى لسانٌ ينطـقُ، وإنْ تكرمـتَ وعفـوتَ عنى.. أقسـمُ برأسـكَ ألا أنطـقَ إلاَّ بالخير، وألا أضايقَ جيرانى أو أتدخلَ فيما لا يعْنِينى، وأنْ أهتمَّ بعملِى وعَائلتى ومَا خلقنى الله منْ أجْله.. أما أنتِ يا أختى اليمامة ويا عزيزتى البومَة، فألتمسُ منكُمَا العفوَ عنى والتجاوزَ عما اقترفته فى حَقكمَا..

بكَى عصفورُ بشدةٍ عندمَا أخذت اليمامةُ والبومةُ تتوسَّلان للمَلك، وتُلِحَّانِ فى طلبِ العفوِ عنه إكرامًا لَهُمَا ورحمةً بزوجتِهِ وصِغَاره.. صمَتَ الجميعُ بينما أخذَ الملكُ يفكرُ بإمعانٍ، ثم نظرَ إلى جمعِ الطيورِ كأنمَا يَسْتفتيهم أو يَسْألهم المشُورة، وفى الحالِ صاحُوا جميعًا يسْألونه العفوَ عنه.. هزَّ الملكُ رأسَه بالموافقةِ ثم قال:

– إذن.. أعفُو عنكَ بناءً على رغبةِ جيرانكَ الأوفياءَ الطيبين.. وأنا سعيدٌ بهذه النهايةِ الطيبة، ولعلَّ الجميعَ وخاصَّة الصغارَ واليافعينَ

قد تعلَّمُوا من هَذِه القضيةِ درسًا مُفيدًا ينفَعُهم فى مُستقبلِ حَيَاتهم، والآن هيَّا تفرقُوا.. وليذهبْ كل منكُم إلى حَالِ سَبِيله.

انصرف الجميعُ وهُمْ يدعُونَ للملكِ بالخيرِ، بينما ظلَّ «عُصفور» يدعُو للملكِ ولجيرانِه الأوفياء بالخَير، وعَاهدَهم على الحب والوئام، وهبَّ مسرعًا إلى زوجَتِه وصغَارِه يحتضِنُهُم بكل الحبِّ والحنَان.



| | | |
|---|---|---|
| ٢٠٠٣/١٣٩٩٧ | | رقم الإيداع |
| ISBN | 977-02-6487-3 | الترقيم الدولى |

٧/٢٠٠٢/٤٥

طبع بمطابع دار المعارف ( ج . م . ع . )